

في التضايف بين الفلسفة والحرية

*Intersection of philosophy and freedom*فلسفة
جامعة تونس / تونس

كريمة بريكي: karima briki *

karimaphilosophie@gmail.com

تاريخ النشر: 2025-12-31

تاريخ القبول: 2025-05-07

تاريخ الإرسال: 2025-02-18

ملخص:

يهدف هذا المقال إلى التأكيد على أن الإنسان هو واحد بوحده الطبيعية والانطولوجية، لأن الإنسان كذات أو هوية والإنسان كآخر أو غيرية هو نفسه، حيث اشتراك جميع البشر في الإنسانية الواحدة في تجاوز للخصوصية المحلية والاختلافات النظرية والذهنية، فالفرد يسعى دائما إلى الترقى إلى الحرية والتنصل من الانغلاق الذاتي الذي يشده إلى الهوية المحصورة، لأن الأخير ليست المتغاير عنا بل هو المماثل أو المشابه لنا، لذلك تكون كل علاقة بالآخر هي في الأصل علامة على التواصل بالذات، لهذا الأمر كان الحق في التفلسف هو حق إنساني، وإن الحرية هي هبة طبيعية الكلمات المفتاحية: الحرية؛ الفلسفة؛ الذات؛ التساؤل؛ الفكر

Abstract:

This article aims to affirm that the human being is one in their natural and ontological unity, for the human as self or identity and the human as the other or alterity are, in fact, the same. All humans share in a single humanity that transcends local particularities and theoretical or mental differences. The individual constantly strives to ascend toward freedom and liberate themselves from the self-enclosure that binds them to a confined identity, since the “other” is not different from us but rather similar or akin to us. Therefore, every relationship with the other is, at its core, a sign of communication with the self. For this reason, the right to philosophize is a human right, and freedom is a natural gift.

Keywords: freedom ; philosophy ; self ; questioning ; thought.

* الباحث المرسل: karimaphilosophie@gmail.com

1. المقدمة

لا نجد صعوبة ابستمولوجية في التقريب بين الفلسفة، والحرية فهما من منبع تاريخي وانثروبولوجي وفكري واحد، ولهما نفس الدلالات: فليس يخفى أن الفلسفة نشاطا فكريا ينتهي الى مجموع النشاطات الفكرية البشرية. وهنا يتعلّق التمييز بالكيفية التي يمكن أن تكون عليها الفلسفة من جهة كونها علما كغيرها من العلوم ... ومن جهة أخرى هي الامر الذي ينبع منه كل العلوم وهي صيرورة، إنها تعايش مسطحات متواجدة معا، وليست تتابع مذاهب" (جيل دولوز، 1997 ص 75)، ومزية هذه المقولة انها تحطم الفاصل بين النظري والعملية

باعتبار أن الحرية ليست معنى مجرد وقائم الذات بمفرده، بل معنى مرتبط بعدة قيم أخرى كالوعي والمسؤولية والحقوق والواجبات "إن الحرية فطرية في الإنسان فهي نتيجة لطبيعته" (فتغنشتاين، ص 80) وتكتسب شرعيتها عندما تصبح فعل وممارسة، وتبعا لذلك فإن فعل التحرر هو ما نكتسبه، ما نتعلمه وما ننجزه في إطار محدد وفق ضوابط معينة، فهو الذي يميز الفعل الإنساني، لأن الوجود لا معنى له دون تحرر من القيود الاجتماعية والنفسية والسياسية ومن كل أشكال العبودية والوساطة والسلطوية "إني أفضل الحرية بمخاطرها على العبودية بسكينتها" (فتغنشتاين، ص 159) وهذا ما يجعل هذه القولة تختزل في عمقها جميع المسلمات الأساسية ولعل أولها هو أن الوجود الإنساني هو وجود حرّ وأن هذه الحرية لا تتجسد الا عبر الفعل الانساني حيث أن الإنسان هو الكائن الوحيد "الكائن الحي والعقل" (محمد بهاوي، 2013، ص 31).

هذه الميزة الإنسانية تدفعه للتفكير في وجوده وتمكنه من الإختيار وتقرير مصيره في ظل واقع منتهك للحقوق والحريات، فإما أن يكون حرا وإما أن يكون عبدا لأن نزعة الحرية الفطرية فيه على حدّ عبارة لنا جون جاك روسو في قوله "ولد الإنسان حرا، وهو في كل مكان، هو الآن يرسف في الأغلال" (جون جاك روسو)، وما لا يجدر بنا أن نغفل عنه هو أن التضاف بين الفلسفة والحرية هو في جوهره التقاء مجالين بينهما تكامل تستلزمه طبيعة الوجود البشري.

ولأننا نريد أن ننظر في الطابع الاشكالي سعينا الى بيان أن التساؤل هو حقيقة التفلسف ذاته باعتبار أن طرح سؤال ما يدل على نوعية الفكر أو العقل الذي يطرح تلك الأسئلة، ولهذا الاهتمام صيغ ودرب، لهذا السبب تكمن الإشكالية التي أودّ طرحها هنا في كون

الحرية هي البديل النظري والفعلي للفعل الإنساني، لأن الحرية هي العلاقة بالواقع وبالغير، وهي مصدر الإرادة لذلك تقتضي المسألة هنا أن ندعم إرادة الانسان وعملية ادراكه لذاته ولغيره ولواقعه. ويكون مستعدا للاعتراف بمسؤوليته كفاعل حقيقي عن تلك الاعمال التي تصدر عنه.

وحق يتسنى لنا الظفر بالأفق الذي يصبح عنده الاشكال الذي نقصد إيضاحه منظورا، نحن مطالبون بالمسعي هو بيان الوجه العملي الذي ينبغي أن تكون عليه الفلسفة حيث أن الفلسفة تمتنع عن القول إن لم يكن هذا القول في الاضاح والتنوير فيه التي تسعى الى تصحيح الأخطاء. "إن الفلسفة لا يجوز لها أن تتدخل في الاستخدام الفعلي للغة انها في النهاية لا تستطيع إلا أن تصفه" (فتغنشتاين، 1990، ص112).

غير أن الاشكال الذي يهتأ في هذا السياق هو أنقيمة الفلسفة تتبدى في الطريق، وليس في الغاية، أي أن السبيل نحو تحقيق التحرر هو الذي يقوم التفكير ويجعل الفلسفة محفزا للإرادة . مما يدفع بالفكر نحو الحركة وبالتالي نحو الحرية لذلك للفلسفة أرضية تتحرك فيها، وصياغة تقوم ببلورتها واضفاء الصورة عليها، أي ترجمة الصورة الى فكرة، أي الى المفهوم "ليس المفهوم تمثيلا ولكنه تركيبي، ليس إسقاطيا وإنما اقتراني، ليس ترانبيا وانما تجاوري، لا يحيل على غيره وانما هو قائم بذاته" (دولوز، ص25)

2. من أشكال الوجود الى اشكال معرفة الذات

1.2 من الشك المعرفي الى اليقين الاستمولوجي

إنه لا انزياح في القول أن الحرية هي قلب كل فعل انساني فردي أو جماعي، حيث أن الحرية هي جوهر السلوك البشري، ويكمن جوهر هذه الحرية في أنها توجه حياة الانسان حسب الحكم الحصيف لعقله دون وصاية برانية وهو ما من شأنه أن يثبت القول البات. "إن الفلسفة وحدها هي الفكر الحرّ، اللامتناهي (...) والحال الفلسفة تعلّما الافتكار، تعلّما كيف ينبغي علينا التصرف في هذه الحال، وهي تعالج مواضيع من نوع خاص، غايتها جوهر الأشياء، لا الظاهرة، الشيء بذاته (هيجل، ص76). ومن هنا نتأدى إلى مطلوبنا وهو حتمية العلاقة بين الذات المفكرة والواقع، وإنّه لأجل هذا طرحنا سؤال قيمة الشك الفلسفي باعتباره منهجا يجعل الفكر يتجاوز الوهم ويتحرر من الأفكار المسبقة حتى يكتشف ذاته حيث أن الشك الديكارتي هو عملية منهجية تحرر الفكر من عقالة حتى يكتشف ذاته باعتباره منطلق كل حقيقة، وبالتالي الحقيقة الأولى التي تبني عليها بقية

الحقائق. فالشك هو عملية نقدية يقوم بها الفكر ليثور على ذاته ويُعيد النظر في مكتسباته (Descartes, 1979, p25)، وإذا نحن تأملنا في صيغة هذا المبدأ وجدنا أنَّ ما يميز هذا الشك الديكارتي هو عملية انعطاف الفكر الى ذاته، أو لنقل عود الفكر الى ذاته، باعتباره تطلع الفكر الى حقيقة ذاته بما هي شرطاً امكاني تطلعه الى حقائق الوجود الخارجي فاذا كانت العملية الأولى هي التي نسميها ميتافيزيقا والعملية الثانية هي التي نسميها الفيزياء فإن الميتافيزيقا أو الفلسفة هي الاساس التي تنبني عليها العلوم عند ديكارت كما نتبين ذلك من خلال مجاز شجرة المعرفة. وما استقرَّ عليه الأمر أن الشك الديكارتي مثلاً منهجاً للتخلص، بل للتححرر من جميع هذه المواقف من هذا الوجود السلبي ولذلك دعى ديكارت الى الشك في كل شيء نعرفه عن طريق الحواس وفي كل شيء تلقيناه من العائلة أو لقنته إلينا المدرسة، أي أن المطلوب هو أن نرفض التسليم لذلك الوجود السلبي والرضي به وذلك ما عبر عنه ديكارت بعملية الشك.

لذلك اعتبر الشك الديكارتي تمرداً، بل ثورة على علوم عصره وعلى فلسفة عصره سعياً منه في تجديد المعرفة تجديداً كلياً. وهذا المطلب جعله يشك في جميع المعارف تقديراً منه أن المعارف القائمة واهية الأسس ضعيفة البنية يمتزج فيها الخطأ بالصواب، والوهم بالحقيقة والموضوعي بالذاتي. وبالتالي فإن هذه المعارف الجاهزة تدعو الى أن نعيد النظر فيها كلياً. لذلك كان التفلسف دائماً أشبه ما يكون بالمغامرة التي نودع فيها المألوف واليومي لنلج حياة أخرى صاخبة فيها الشك والظن وحتى عدم الاطمئنان وفي كل مرة يكتشف الشخص الذي يسأل انه لم يتعود طرح مثل تلك الأسئلة على نفسه ولم يتعود التأمل ما يفعله كل يوم بل هو يظن أنه يعرف فيكتشف أن لا يعرف أو أن معارفه غير كافية أو أنه لم يتعود أصلاً أن يسأل وأن يحتار، وأن ينظر الى الحياة اليومية العادية نظرة جديدة فكأن كثرة انشغاده الى الحياة اليومية يلهيه عن مسائلها. وبالتالي عن اكتشاف ما يمكن أن يكون فيها من غرابة، أي يكتشف أنه يمكن أن تكون الحياة على نمط آخر غير الذي تعود أن تكون القيم من نوع الذي تربى عليه.

2.2 اعمال العقل يحررنا:

هنا يقتضي المقام أن نوضح أن الفكر الفلسفي يتميز بكونه فكراً نقدياً وبالتالي فإن ندرك كنه الفلسفة هو أن نتساءل عن حقيقة الفكر النقدي فاذا واعتبرنا أن الفرق بين الفلسفة والعلوم هو أن الفلسفة ضرب من المعرفة التي لا تختص بموضوع بعينه ولا

بمجال محدد ولكنها تطرح أسئلة تتناول جميع الموضوعات وجميع وجوه النشاط البشري بحيث قد يتساءل الفيلسوف عن حقيقة العالم وحقيقة الروح، أو النفس أو حقيقة الانسان، أو حقيقة الالهوية بحيث ليس ثمة موضوع لا يتناوله الفيلسوف بالدرس أو بالتساؤل.

وباستواء الرؤية على هذا النحو ندرك أن السؤال الذي يطرحه الفيلسوف هو سؤال الماهية l'essence في مقابل العرض la contingence فسؤال الماهية هو السؤال الذي يصاغ بعبارته ماهو؟ أو ماهي؟ وهو سؤال يطلب الوقوف على بما تكون به الأشياء وما تلتم به حقائق الوجود، سؤال الماهية يطرح على النحو التالي ما هي الحياة ما الشعر ما الانساء. أو ما هو الشعر وما هو الكون وما هو الانسان؟

وسؤال الماهية يختلف عن سؤال الاعراض أو الصفات الشكل (مربع، مستطيل) وسؤال اللون (اخضر احمر اصفر) أو سؤال الصفات كأن تقول هو ذكي أو غبي.. فالشكل أو اللون أو الصفة هي نسميها اعراضا وهي جمع عرض accident وخاصة العرضي أنه يمكن أن يوجد أو لا يوجد، أي أن الصفات متغيرة متبدلة لذلك نقول أنها عارضة. في حين أن الماهية هي ثابتة بمعنى لا تتغير ولا تتبدل فعندما نطرح سؤال ما هو الانسان؟ فليس يعنينا فيه أنه ذكي أو غبي مسلم، أو مسيحي أسمر البشرة أو أشقر اللون. وعلى هذا الأساس فإن سؤال الفلسفة هو سؤال الماهية أي سؤال البحث عن حقائق الأشياء بصرف النظر عن اعراضها. لهذا الامر يكون "دور الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار، ليست الفلسفة نظرية من النظريات، بل هي فاعلية" (فتغاشتين، ص74، 1968)، أي هي نشاط النقد، نقد العلل الماورائية، لأجل استئصال الأوهام وطرد الشوائب الميتافيزيقية.

لقد بان مما فات أن الفلسفة في أعماق معانيها هي طريقة في توضيح القضايا وبيان ما لها من معنى، "أي أن الفلسفة أصبح ينظر إليها على أنها أسلوب فني لعلاج المشكلات الفلسفية وبذلك أصبحت مهمتها مهمة علاجية" (فتغنشتاين، ص78)، لأجل ذلك تكون عملية التفلسف ضربا من الانفصال أو من التماسف أخذ مسافة، وهذا التماسف معناه ظهور بون أو فاصل أو مسافة بين الانسان والعالم، أو بين الذات sujet والموضوع objet أو بين الانا، والعالم فيكون عندها التفلسف معناه الأسئلة التي تطرحها الذات على الموضوع وهنا يتخذ الفكر النقدي شكل اليقظة فكأن الانسان كان في غفلة عن ذاته وعن العالم فهو الآن يعي ذاته في علاقتها بالعالم "وبذلك نتبين أن الانشداد الى الحياة

اليومية والاعراق في مشاغل الوجود المباشر من شأنه أن يلهينا عن الوعي بذواتنا، ويجعلنا نفضل الاطمئنان الذي تعودانه والسكون الى عاداتنا التي ألفناها عن حيرة السؤال وما ينتج عنها من شكوك وربما اللايقين .

وهنا حري بنا أن نقول بلغة فيراري، أن الفلسفة ليست شيئا آخر سوى عمل اللغوس بمعنى أن "بناء هوية الكوني والفردى تتيح تحقيق مجتمع أصيل وجدير بالثقة" (فيراري، 2002، ص 81)، وما عمل اللغوس إلا ابتكارات وابداعات الذات الإنسانية، وليس اللغوس هنا إلا بالمعنى الاغريقي العميق الذي يضم كل القيم والحوار، والتبادل في الأفكار، والسجال والجدال أي الامر الذي يجعل من الانسان كائنا باحثا المستطيع الذي توجهه الإرادة ويدفعه الاندهاش، باعتبار أن العقل تحمله الفلسفة منذ ظهورها، العقل المجادل، المفكر.

نلمح لدى لأن Alain نمطا مثيرا من القصد حيث أن قد صرف همه الى تأكيد مفاده هو " أن نفكر هو أن نقول لا" ومعنى قولنا هو مطالبة بالاستقلال الفكري وهو ما يقتضي الاضطلاع بمسؤولية الوجود الشخصي. وتظهر دلالة الفكرة فيما ذهب إليه ديكارت الذي يصل وصلا متينا بين التفكير والوجود. إذ أنه على قدر الاضطلاع بمسؤولية التفكير، أنا أفكر يكون نصيبي من الوجود، ويكون فعلي في الوجود. وعلى قدر تقلص التفكير عندي يكون تقلص وجودي حتى لكأن من لا يفكر لا يوجد. فالوجود السلبي نسميه وجود القاصرين، والوجود الشخصي الإيجابي نسميه الوجود الرشيد . ذلك هو المعنى الذي يصل فلسفة رينه ديكارت بفلسفة إيمانويل كانط باعتبارهما فلسفتين من الفلسفة الذاتية la philosophie de la subjectivité

وهذا التفسير يذكرنا بما كان ذهب إليه خاصة ديكارت في كتابه مقالة المنهج le Discours de la Méthode في الجزء الأول منه حيث يقول "إن الحسن السليم هو أعدل الأشياء توزيعا بين الناس" (Descartes, 1982, p85)، وما يعنيه وديكارت بذلك أن البشر متساوون بالعقل، وأن الفوارق بين البشر ليست مترتبة عن فوارق في الملكات الطبيعية بل حسن استخدام تلك الملكات الطبيعية فديكارت لا يدعي أن عقله أفضل من عقول الآخرين ولكنه يؤكد أن المهم هو استخدام العقل بطريقة منهجية فقد كتب هذه الكتاب لا ليزيد في عقولنا درجة ولكن للإعانة على حسن استعمال عقولنا .)، "ان الفلسفة هي فن تكوين وإبداع وصنع المفاهيم" (جيل دولوز، ص 35).

ولهذا الأمر معاني كثيرة منها المعنى الاستمولوجي هو أن يكون الانا أو الكوجيتو هو منطلق المعرفة أو قل الحقيقة الأولى التي تُبنى عليها بقية الحقائق وهو اليقين الأول الذي عليه تقاس بقية الحقائق . فعندما يقول ديكارت "انا افكر اذا انا موجود " فهو يقف على حقيقة بديهية Une vérité évidente أي حقيقة تركز في الذهن ويستبين الفكر معناها دون حاجة الى برهان أو الى تفسير إضافي. فنحن اذا امام تجربة وجودية، تجربة فعلية يلتئم فيها أعمال الفكر بالشعور بالوجود. ولذلك اعتبر ديكارت الكوجيتو فكرة بديهية لا تقل وضوحا وبداهة عن الأفكار أو الحقائق الرياضية مثل أن الكل أكبر من الجزء أو أن أشعة الدائرة متساوية، بل إن الكوجيتو عند ديكارت أوضح من الرياضيات، وأكثر بداهة منها ولذا فإن الفكر أو الكوجيتو لا يستمد من الرياضيات أو من العلوم مشروعيته بل إن العلوم عامة والرياضيات خاصة تقاس حقيقتها ووضوحها وبدايتها على بداهة الكوجيتو ووضوحه أي أن الكوجيتو هو أساس العلوم ومعايرها .

هنا يقتضي المقام أن نوضح أن الفكر الفلسفي يتميز بكونه فكرا نقديا وبالتالي فإن ندرك كنه الفلسفة هو أن نتساءل عن حقيقة الفكر النقدي فاذا واعتبرنا أن الفرق بين الفلسفة والعلوم هو أن الفلسفة ضرب من المعرفة التي لا تختص بموضوع بعينه ولا بمجال محدد ولكنها تطرح أسئلة تتناول جميع الموضوعات وجميع وجوه النشاط البشري بحيث قد يتساءل الفيلسوف عن حقيقة العالم وحقيقة الروح، أو النفس أو حقيقة الانسان، أو حقيقة اللاهوية بحيث ليس ثمة موضوع لا يتناوله الفيلسوف بالدرس او بالتساؤل.

وباستواء الرؤية على هذا النحو ندرك أن السؤال الذي يطرحه الفيلسوف هو سؤال الماهية l'essence في مقابل العرض la contingence فسؤال الماهية هو السؤال الذي يصاغ بعبارة ماهو ؟ او ماهي ؟ وهو سؤال يطلب الوقوف على بما تكون به الأشياء وما تلتئم به حقائق الوجود

لقد بأن مما فات أن الفلسفة في أعماق معانيها هي طريقة في توضيح القضايا وبيان ما لها من معنى، "أي أن الفلسفة أصبح ينظر إليها على أنها أسلوب فني لعلاج المشكلات الفلسفية وبذلك أصبحت مهمتها مهمة علاجية" (فتغنشتاين، ص78)، لأجل ذلك تكون عملية التفلسف ضربا من الانفصال أو من التماسف، أي أخذ مسافة وهذا التماسف معناه ظهور بون أو فاصل، أو مسافة بين الانسان والعالم، أو بين الذات sujet

والموضوع objet أو بين الانا، والعالم فيكون عندها التفلسف معناه الأسئلة التي تطرحها الذات على الموضوع. وهنا يتخذ الفكر النقدي شكل اليقظة فكأن الانسان كان في غفلة عن ذاته وعن العالم فهو الآن يعي ذاته في علاقتها بالعالم "وبذلك نتيين أن الانشداد الى الحياة اليومية والاعراق في مشاغل الوجود المباشر من شأنه أن يلهينا عن الوعي بذواتنا، ويجعلنا نفضل الاطمئنان والسكون الى عاداتنا التي ألفناها عن حيرة السؤال وما ينتج عنها من شكوك وربما اللايقين . إن اكبر سوء يمكن أن يلحقه المرء بنفسه هو أن يقبل ضعفه في هذا العالم فالحصول على حل لا يأتي من خارجنا بل هو حل داخلي بامتياز، الفلسفة تبحث في الانسان بما هو انسان لان الفلسفة لا خصوصية كونية لها لا بدا ان تتوجه الى الانسان بما هو انسان عاقل ولا أصبحت أيديولوجيا

3. الفعل الفلسفي فعل حرّ

1.3 في حرية بناء الذات

وليس ممّا يحتاج إليه بيان أنه لا يمكن بلوغ الحكمة (sophia) والظفر بالحياة السعيدة سوى بالمرور بالدروب الشائكة، وهي بمثابة نزع الرذائل وزرع الفضائل، وهذا السلوك يقتضي بناء الذات على قيم الاستقلال والإرادة، لان السلوك الفلسفي يكشف للذات عن حقيقتها التي تكتشفها بالتدرج عبر الدربة والتعلّم. ومن هنا يتخذ السلوك الفلسفي صبغة المنهج في تحفيز الذات على التمييز العقلي بين الحقيقة والوهم . وأنه إنما هنا بالتحديد نظفر بمعنى التمييز، أي أن تهتدي الذات الى بناء ذاتها بذاتها (كانط، 1786)، حيث تكتسي الفلسفة هنا دلالة امتحان الإرادة بالمعنى الذي اقره سينيكا حيث نعت الفلسفة كقائد يجنّد الكتائب ضد الغباء والكسل والألم والعواطف حيث يقول "إن الفكر المتحرّر من العواطف هو عبارة عن قلعة، فلا أقوى في الانسان من ذلك، وهي الملاذ المنبع" (مرقس، ص30).

حيث يصب اهتمام هيقل في المسار نفسه الذي نحتة كانط وهو قدرة الانسان على أن يفكر بذاته، أي أن يكون حرًا في تفكيره، أي تفكير يكون نتاج الإرادة الحرة، بما يعني أن العجز عن التفكير هو في معناه العميق انتفاء للحرية، ففي حقيقة الامر أن التفكير الفلسفي بما هو حرّية تسعى الى التجسّد في الفعل الإنساني من خلال الصنائع والابتكارات، أي بالسلوك الصانع. وقد كان هيدقير يرى في التفكير كنهج يفيد السلوك والتدبير وليس فقط التخمين والتجريد " (هيدقير، 1973، ص247).

وليستبين السبيل نجد كانط في رسالته "فكرة التاريخ العالمي من وجهة نظر كوسوبوليتيه" 1784 يتساءل فيها عن جدوى الحضارة إذا كانت الأخلاق عارية من الحرية ومن الحكم العقلي والتميز النظري (كانط، 1983، ص44)، حيث أن كانط يطابق بين الحرية والأخلاق إذ أن الأخلاق التي يقصدها كانط هي الحرية ذاتها، فالحرية هي بالأساسي تكوين ذاتي . هيغيل هو الآخر يشترط الحرية في كل عقل فلسفي، حيث يتعلق الامر باشتغال العقل على ذاته وعلى واقعه المباشر وينتج عن هذا الانشغال قيم الوعي والتحرر المنشود "إن تاريخ الفلسفة يقدم لنا مجموعة النفوس الشريفة التي تغلغلت بفضل شجاعة عقلها، في طبيعة الأشياء، في طبيعة الانسان، وفي طبيعة الله، كاشفة لنا عن عمقها، ومثبتة لنا كثر المعرفة العليا، وان هذا الكثر الذي نطالب بحصتنا منه يشكل الفلسفة بوجه عام" (هيغل، 1986، ص16). لأن الأساس في الحرية أن يفكر الانسان بذاته من أجل ذاته، أي ان يمارس رشده العقلي باعتباره الكائن الوحيد الناطق والمفكر، وبالتالي الكائن الوحيد الحر .

ويعبر هيغل عن هذا التشكل في قوله "أن الفكر بذاته حرّ وخالص، لكنه عادة يرتدي شكلا ما، انه فكر متعين خاص كما يكون في التمثل. إن الفلسفة لا تنظر في تمثيل كهذا، وإنما تنظر في جوهر الموضوع، وهذا الجوهر هو الموضوع ذاته، وبالتالي فإن الفكر هو موضوع الفلسفة، وعليه يكون الروح حرّا عندما ينشغل الفكر بنفسه، عندما يكون اذن لنفسه" (هيغل، ص76). وهذا ما يفسر لماذا نعت شيشرون الفلسفة بانها "فلاحة النفس" اذا هي أفكار إبداعية، الفيلسوف لا يعيش أحلامه بعيدا عن صعوبات الحياة . لذلك فإن فعل التفلسف هو ضرب من الثورة على المعتاد والمألوف والمعروف، والسائد بين الناس من قيم وأفكار ليشق المرء طريقا يفتحها لنفسه دون وصاية من أحد، ودون تقليد لآخر. إن مناهج الفلسفة كثيرة ونتائجها لا يحصل حولها اتفاق . المهم هو أن الفلسفة تعتبر تفكيراً عاماً وشمولياً ولكن ليست له نتائج يمكن أن تُوضع موضع التطبيق المباشر لذلك تعتبر " الفلسفة هي رؤية في نظام العالم وليست خطابا في بنية التعبير" (محمد شوقي الزين، ص214، ص2015). غير أن هذه المقاربة التقليدية تُهمّل أهم ما يميز الفلسفة وهي أنها تعتبر فن طرح الأسئلة أكثر مما هي تحصيل أجوبة فليس اعسر من أن يطرح الفكر على نفسه الأسئلة التي يمكن أن يقال عنها أنها أسئلة فلسفية. لذلك كان من أهم خصائص سؤال الفلسفة أنه يجعلنا نفقد البدهة اليومية ونعود الى ذواتنا فنكتشف

ذواتنا ونسائل تلك الأشياء عن حقائقها هل من الضرورة أن تكون الحياة على هذا النحو؟ أم أنه يمكن أن تكون على نحو آخر مغاير؟ وبالتالي فإن الانسان يكتشف عرضية الأشياء التي تعودها وعرضية الأفكار والقيم ويُعيد مساءلة نفسه عن معاني تلك الأشياء وتلك الأفكار.

ونتيجة لهذه التساؤل يقع تحول كبير. فبعد أن كان الفرد مشدود للحياة اليومية منشغلا بها منساقا اليه وكان كل شيء فيها مستقيم بذاته وكل شيء طبيعي ولا يمكن ان يكون إلا على ذلك النحو وإذا به يعود الى ذاته وينسلخ من ذلك اليومي المعتاد وكأن ذلك اليومي الذي تعودَه أصبح غريب عنه وكأنه يكتشفه لأول مرة. وهنا يواجه الانسان نفسه أو قل هو يكتشف ذاته بعد ان حررها من الشأن العادي من الانسياق العادي للحياة اليومية. فنحن هنا امام حركتين:

حركة تلقائية تجعلنا ننساق الى الوجود ونقبله على النحو الذي وجدناه ونقبل القيم والأفكار كأنها حقائق بديهية.

الحركة الأولى تلقائية والثانية هي حركة انعطافيه، عودة الفكر الى ذاته لذلك قدر سقراط أن أول واجبات الحكيم أن يعرف نفسه بنفسه فبعد سؤال الأشياء ما الجمال؟ ما الوجود؟ يأتي سؤال الذات وههنا تكمن المعاني الأساسية للفلسفة عامة وفعل التفلسف هنا يتخذ شكل التربية والتربية هنا تدقيقا جعل الفكر أو الانسان أو الفرد ينتبه الى ذاته يعود الى ذاته بعد أن يتخلص من البداهة الأولية التلقائية ومما تعود من القيم ومن الأشياء فالتفلسف عملية فكرية همها الأول ان يعرف الانسان نفسه بنفسه.

ولعل هذ التصور بلغ أوجّه مع هيغل الذي نعت الفلسفة على أنها تحلق في الغسق لتبدأ عمل التأمل حيث يقول " اذ يبدو أن الفلسفة تصل متأخرة أكثر مما ينبغي بالنسبة لهذه المهمة. فهي بوصفها " فكرة" العالم لا تظهر إلا حين يكتمل الواقع الفعلي وتنتهي عملية تطوره (...). حين ينضج الواقع الفعلي فعندئذ فقط يبدأ المثل الأعلى في الظهور ليجابه عالم الواقع ويواجه ولكي يبني لنفسه في صورة مملكة عقلية، ذلك العالم الواقعي ذاته مدركا في وجوده الجوهرى ما تضعه الفلسفة من لون رمادي فوق لون رمادي لا يمكن أن يجدد شباب الحياة، ولكنه يفهمها فحسب، أن بومة مينيرفا لا تبدأ في الطيران إلا بعد أن يرخي الليل سدوله "(هيغل، 1996، ص119).

إنه وبفضل هذه الرهانات تبقى الفلسفة هي تجليات للفعل الإنساني، فأفعال الإنسان هي صنائعه عبر التاريخ التي كانت صنعة إرادة القوة واستقلالية التفكير، ولعلها مهمة العقل الفلسفي الذي يجعل التفكير في صلب الفعل البشري أو التجربة الإنسانية، إذ أن التفكير يقوم بإيجاد الصيغ العقلية في ادراك هذا الفعل، لذلك كان الاشتغال على الذات حالة لا تنضب وهي مهمة تنفرد بها التربية لأنها تنطوي في مقولتها على كل القيم والمبادئ ودفع الإنسان نحو التفكير والتنوير والتعلم. وكأنها تحمل الأمر الذي يمس في العمق، شيء له تجلي في الفعل الحرّ، أي كل القيم التي تُبين أن التربية هي ما نحياه جذريا من خصائص سؤال الفلسفة أنه يجعلنا نفقد البدهة اليومية ونعود الى ذواتنا فنكتشف ذواتنا ونسائل تلك الأشياء عن حقائقها هل من الضرورة أن تكون الحياة على هذا النحو؟ أم أنه يمكن أن تكون على نحو آخر مغاير وبالتالي فإن الإنسان يكتشف عرضية الأشياء التي تعودها وعرضية الأفكار والقيم ويعيد مسألة نفسه عن معاني تلك الأشياء وتلك الأفكار.

2.3 الفلسفة سلوك عملي

كثيرا ما تُعرّف الفلسفة بمقارنتها بالعلوم كالرياضيات أو الفيزياء أو البيولوجيا... وتُظهر هذه المقارنة الفلسفة في شكل العموم le générale في حين تعتبر العلوم معارف خصوصية، فالفلسفة موضوعها الوجود من حيث هو وجود "إن كل فعل الفلسفة ليس شيئا آخر أكثر من النظر في الموجودات، إنما تدل على الصانع بمعرفة صنعتها، وأنه كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم" (جبران بن حيان، 1354، ص 205) "إن أعلى الصناعات منزلة وأشرفها مرتبة صناعة الفلسفة التي حدّها علم الأشياء بقدر طاقة الإنسان" (الكندي، 1950، ص 97)

في حين أن العلوم موضوعاتها الموجودات العينية les êtres concret مثل الكائنات الحية في البيولوجيا، أو الاشكال الهندسية في الهندسة... ولذلك تعتبر العلوم معارف des connaissances، أو مباحث des recherches لها مناهجها التجريبية كما هو الشأن في الفيزياء أو البيولوجيا أو العلوم البرهانية المجردة كما هو الشأن في الرياضيات أو المنطق ولها أيضا نتائجها نسميها قوانين طبيعية loi naturel مثل قانون الجاذبية الكونية.

لهذا الامر نلمح في كتاب فلسفة أو بربرية " أن أوارد فيراري يجعل من الفلسفة "الكنز المخفي" (فيراري، 2002)، ولنحاول تقصي الفكرة التي يثيرها فيراري في هذا الكتاب وهي أن الفلسفة كنزا مخفيا لم تحسن البشرية استثماره وعوّضته بالبربرية أي الهمجية المهذمة

للحضارة والناقصة للعقل الحي والمركب، والكنز في دلالته هو شيء فريد، نادر يحتفظ كـأسمال، فهو في نفس الوقت الثابت والمتغير المركز والمحيط، ويذهب هيدقير في هذا المستوى الى التأكيد على أن "الفلسفة هي في جوهرها قبل أوانها، لأنها تنتهي الى هذه الأشياء النادرة حيث يكون مصيرها هو عدم مصادفة الصدى المباشر في يومها الخاص (هيدقير، 1980، ص20) وأن القول الذي استبان هنا أن الفلسفة هي الشيء الذي يضحي خفيا في ماهيته، بارزا في آثاره ويمد ما عداه من أدوات القراءة وأساليب التحليل والتركيب وأنماط الجدال والسجال (شوقي الزين، ص27). أنه علينا أن نلاحظ هنا أن الفلسفة منذ الاغريق مثلت مسارا من الجدال والسجال وهذه الصفات ساهمت في ابراز التفكير الفلسفي كقيمة علمية، وإبراز السؤال العلمي كقيمة فلسفية. إذا لجاء الى الفلسفة كطريق نحو تحصيل الحرية، بالمعنى الذي يقر أن الفلسفة هي الدربة على التفكير، والدربة بما تعني من مغامرات أي التعلّم من المخاطر وإمكانية الأخطاء والعثرات التي تحصل في الدرب. باعتبار أن السلوك الفلسفي يحتمل التحكم في النفس وضبطها ومجابهة نزواتها العنيفة.

حيث يكتشف الانسان ذاته في معرض تحرره. وقد استبان هنا لماذا نعت شيشرون الفلسفة على أنها "العناية بالنفس" (شيشرون، 1840، ص121)، بما يعنيه أن الفلسفة هي مجموعة من القيم والرؤى والأفكار التي تكتسبها النفس وتعتنى بتربيتها وتهذيبها/ وأن القول الذي استبان هنا أن الفلسفة هي الشيء الذي يضحي خفيا في ماهيته، بارزا في آثاره ويمد ما عداه من أدوات القراءة وأساليب التحليل والتركيب وأنماط الجدال والسجال (محمد شوقي الزين، 2015، ص27).

واستفاء في القول إن الفلسفة تشكل المبحث العلمي الأكثر وضوحا ورغم ذلك تضحي "المعلوم المجهول الذي لا يزال يقلق ويستفز (محمد شوقي الزين، ص256)، لأن الفلسفة غائبة، بل حاضرة حضور الشمس بوهجها، ولكن من فرط وهجها لا يتحملها الكثير وربما الوقوف على حقيقتها أسوة بما قاله الفيلسوف ألان باديو في كتابه العلاقة الملغزة بين الفلسفة والسياسة " "ان الفلسفة هي الفرع المعرفي الذي يأتي بعد نهار المعرفة والتجارب والحياة الحقيقية، في بداية الليل" (آلان، 209، ص2006)، الفلسفة هي المبدأ الذي تنطلق منه كل الابتكارات هنا يأتي دور الفلسفة بوصفها نمطاً للعيش، وفتاً للحياة،

إن ما نريد إظهاره بصورة بارزة إنما يتعلق بتأكيد مفاده أن الفلسفة هي تعبيراً عن الواقع من خلال السلوك اليومي للفرد، والأمر الحاسم في ظهورها هو دهشة الفرد أمام الأشياء كان افلاطون في محادثة "ثيائوس" أورد مفهوم التعجب على لسان ثيائوس بقوله "نعم يا سقراط، وتتملكني الدهشة حينما أفكر بها (الأسئلة)" واجابة سقراط "لأن التعجب أو الانشده هو شعور الفيلسوف، وتبدأ الفلسفة به" (افلاطون 1994، ص158)، وهو الدليل الفلسفي الذي اعتمده ارسطو، حيث تبدو الفلسفة بالتعجب الذي يدفع الى طرح الأسئلة كتدريب ذاتي في مواجهة عوائق الحياة الفعل الإنساني هو الذي يساعد الفرد على التفحص شروط وجوده والتساؤل الذي يهبه أدوات التحرر التي تكمن بالأساس في البحث عن الحقيقة لذاتها في اكتشاف الوجود والوجود لا يتجلى الا في صلب التجربة البشرية والحرية محور كل فعل وقرار انساني . حيث أن الفعل الإنساني هو الذي يساعد الفرد على التفحص شروط وجوده والتساؤل الذي يهبه أدوات التحرر التي تكمن بالأساس في البحث عن الحقيقة لذاتها في اكتشاف الوجود والوجود لا يتجلى الا في صلب التجربة البشرية والحرية محور كل فعل وقرار انساني . حيث يكتشف الانسان ذاته في معرض تحرره.

تقتضي الحرية أن يكون للإنسان مساراً في الحياة أي مبدا ينطلق منه وسبيل يسلكه نحو غاية يتبعها ما القيمة العملية والنظرية الممكن اقتناؤها بوضع الحرية كعامل مشترك بين التفكير الفلسفي والواقع؟

الخاتمة

لقد اتضح مما تقدم أن الفلسفة تدعو الى تحرير الفكر بالشك في جميع الأوليات، في جميع البديهيات، الحسي منها والعقلي حتى يعيد الفكر بناء المعرفة ذاتياً باعتبار ان ما تعلمناه، ما لقناه منذ طفولتنا فيه الوهم والحقيقة فكيف لنا ان نفصل هذا عن ذلك وكيف لنا ان نميز بين الخطأ والصواب فيكفي أن نكتشف أن فكرة ما اخذناها مأخذ الحقيقة منذ صغرنا يكفي أن نكتشف أنها خاطئة . وهكذا يتضح أن روح الفكر الفلسفي إنما هو الجسارة على التفكير والتفكير مسؤولية شخصية لا نيابة فيها وليس لاحد ان ينوب عني فيها او أن يكون وصياً على فكري فربّ خطأ ارتكبه وأن ابحت مخلص عن الحقيقة أفضل من "حقيقة او شبه حقيقة تُلقن لي أو تفرض عليا لأن الخطأ الى الزوال، في حين أن الاستقالة الفكرية شر دائم .

ويمهنا هنا أن نقوم بإطالة على ما من شأنه أن يرتقي بالإنسان إلى أعلى ممّا هو عليه كما ورد في كتاب "نقد العقل العملي" وبالتحديد في الفصل المخصّص للدوافع "ليس شيئاً آخر سوى الشخصية، أي الحرية والاستقلال بالنسبة أولية الطبيعة بأكملها" (كانط، 2011، ص 91) مما لا شك فيه أن انتفاء الحرية هو في الأساس نفي للشرط الإنساني، باعتبار أن التفكير الفلسفي هو ممارسة عملية لتطور الكائن بالاستعداد والانتقال من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل تبعاً للمعجم الارسطي، لأن الفعل البشري في جوهره حرية التي تتجسد في العمل، والتفكير يقتضي الأداء للفعل البشري، وأن تدبر هذه العلاقة الوطيدة بين الفلسفة والحرية هو الربط بين النظري والعملي، وكان هيدقير يري في التفكير كنهج يفيد السلوك والتدبير وليس فقط التخمين والتجريد (هيدقير، 1973، ص 247). وبالتالي تكمن الحرية في أحداث همزة بين الفعل الإنساني، والمعنى الذي تريد اصفاءه على ذاتها معنى الإرادة والاستقلالية فعندما تندسج هذه المبادئ مع الوجهة التي يريد الانسان بلوغها أي المعنى الذي يريد انتاجه فهي تعبر عن الحرية. فالفرد يتعرف على ذاته في تحرره،

المصادر والمراجع:

- الكندي، (1950) "كتاب الكندي الى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى"، ضمن رسائل الكندي الفلسفية، دراسة وتحقيق محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار الفكر العربي
- لدقيج فتغنشتاين، (1968) رسالة منطقية فلسفية، ترجمة عزمي اسلام، مكتبة الانجلو مصرية
- محمد بهاي، (2013)، الفلسفة والتفكير الفلسفي الجزء الثاني، أفريقيا الشرق، المغرب، ط 2، 2013
- جابر بن حيان، (1354)، "كتاب الخواص الكبير"، في مختار رسائل جابر بن حيان، تحقيق ونشر كرواس، القاهرة، مكتبة الخانجي
- جيل دولوز، ماهي الفلسفة، (2007)، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية
- شيشرون، (1840)، محادث ات، فقرة 5 في: أعمال شيشرون الكاملة، الجزء الثاني، ترجمة وتحقيق تيزار، باريس، منشورات دوبوشية
- كانط إيمانويل، (1983)، فكرة التاريخ من وجهة نظر كوسموبوليتية"، في فلسفة التاريخ (نصوص مختارة)، ترجمة بيوبيتا، باريس، منشورات غونتييه
- لدقيج فتغنشتاين، (1990)، بحوث فلسفية، ترجمة عزمي اسلام، الكويت، 1990، فقرة 133
- أفلاطون، (1994) المحاورات الكاملة، المجلد الخامس، ترجمة شوقي داود تميز، دار الاهلية للنشر
- أوارد فيراري، (2002) فلسفة او بريرة، أوروبا العقل وأوروبا الحيانة، باريس، لارماتان
- كانط إيمانويل، (2011)، نقد العقل العملي، تقديم وتعريب ناجي العونلي، جداول للنشر والتوزيع، 2011
- لأندريه كوت سيوفيل، (2009) حول الفلسفة فنا للعيش في كتاب: فلسفات عصرنا: تياراتها، مذاهبها، أعلامها، وقضاياها. جان فرانسوا دورتي. تأليف جماعي مجلة العلوم الإنسانية. ترجمة إبراهيم صراوي. منشورات الاختلاف، ط 1
- محمد شوقي الزين، الثقاف في الأزمنة العجاف فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، منشورات الضفاف، الطبعة الثانية
- محمد شوقي الزين، (2015)، الثقاف في الأزمنة العجاف، فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، منشورات الضفاف،

- هيدقير، (1973)، ما معنى التفكير ؟ ترجمة بيكر وغرائيل، باريس، المطبوعات الجامعية الفرنسية
- هيدقير، (1980)، مدخل الى الميتافيزيقا، الترجمة الفرنسية جلبرت كاهن، باريس، غاليمار
- هيغل، (1986)، محاضرات في تاريخ الفلسفة، ترجمة خليل أحمد خليل خليل، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر
- هيغل، (1996)، أصول فلسفة الحق، ترجمة امام عبد الفتاح امام، القاهرة، مكتبة مدبولي
- المراجع باللغة الأجنبية
- Descartes, (1982)René,Discours de la methode, Editée par C,Adam et P ,Tannery ,Paris, Vrin
- Descartes ,René(1979) ,Méditation metaphisique,Paris,Garnier-Flammarion,1979